

وخلاصة القول إنه لا يمكن الفصل بين الثقافة والحضارة أو إقامة أى تعارض بينهما ^(١) .
متداخلان دون أن يصلا إلى حد التساوى ، وهما متميزان دون أن يصل بهما هذا التمايز إلى درجة التباين ^(٢) .

فنحن من جهة لا يمكن أن نساوى بين الحضارة والثقافة ومن جهة أخرى لا نصل إلى ^(٣) .
الذى يجعل من الثقافة شيئاً ومن الحضارة شيئاً آخر ^(٤) . وبالتالي فإن «الحضارة يمكن أن تكون قومية ، لأن الثقافة تتجلى لنا مرتبطة بالنظام المجتمعي والسياسي» ^(٥) .

ولذا كانت الثقافة وحدة صغيرة داخل بناء الحضارة ، فالحضارة تحوى فى داخلها الثقافة والمدنية والعمران ، وعندما تصل جماعة ما إلى أقصى درجة من هذه الأمور الثلاثة فقد بلغت الحضارة بأكملها .

ثالثاً : العلاقة بين الحضارة واللغة

عرّف ابن جنى اللغة بأنها : أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ^(٦) .

ويتضح لنا من هذا التعريف أن اللغة وظيفة اجتماعية تمثل فى التعبير عما يعتلج فى نفس الأفراد ، وأن لها إطاراً اجتماعياً ، ومن ثمّ فهي تختلف باختلاف الجماعات الإنسانية ، وعلى هذا فوجود اللغة يشترط وجود المجتمع ، ومن هنا يتضح لنا الطابع الاجتماعى للغة ، فليس هناك نظام لغوى يمكن أن يوجد منفصلاً عن جماعة إنسانية تستخدمه وتتعامل به ، فاللغة ليست هدفاً فى ذاتها وإنما هى وسيلة للتواصل بين أفراد الجماعة الإنسانية ^(٧) .

واللغة نسق دقيق من العلاقات يعقده أفراد المجتمع بين بعضهم البعض ، وبينهم وبين البيئة التى تحيط بهم . وبحكم هذه العلاقة أصبح للغة تأثير بالغ فى مناحى الحياة .

وأما عن العلاقة بين اللغة والحضارة فهي علاقة بناء وتحديد ، بمعنى أن اللغة تحدد الحضارة كما أنها فى الوقت نفسه تتحدد بها ، فاللغة تحدد الحضارة باعتبار علاقتها بالحقائق الحضارية التى تكون معها مجموع الحضارة ، وهى فى الوقت عينه قيد للحضارة ومفتاح لها وكانت لهذا السبب نموذجاً

(١) من المنقول إلى المنفتح ، محمد عزيز الحبابي ، ترجمة محمد براءة ، ط الثانية ، الأنجلو المصرية ١٩٧٣ م ، ص ٣١ .

(٢) السابق ، ص ٣١ .

(٣) الخصائص ، تحقيق محمد على النجار ، الهيئة العامة للكتاب ، ط الثالثة ، ١٩٨٦ م ، ج ١/ ٣٤ .

(٤) مدخل إلى علم اللغة ، د. محمود حجازي ، دار الثقافة ، ط الثانية ، ١٩٧٨ ، ص ٩ .

نظرياً لدراساتها من قبل علماء الأنثروبولوجى ، وأكدوا من خلال هذه الدراسة أن العلاقة بين اللغة والحضارة علاقة سببية ، أو علاقة تأثير وتأثر

ولقد ربط مالىنوفسكى بين اللغة والمجتمع فى دراسته لبعض المجتمعات البدائية وتوصل إلى أن وظيفة اللغة ليست أنها وسيلة للتفاهم ، أو للتوصل بل وظيفة اللغة أنها حلقة فى سلسلة النشاط الإنسانى المنتظم ، هى أنها جزء من السلوك الإنسانى ، إنها ضرب من العمل وليست أداة عاكسة للفكر^(١) .

وإن العامل الحضارى عامل فعال فى حياة اللغة وانتشارها ، والواقع أن : «الفصل فى قيمة اللغة هو تراثها وما تحمله من حضارة وعلم يفيد الحاضر ويبنى المستقبل»^(٢) ، وذلك لأن الحضارة هى مجموع التركة التى يريثها جيل عن جيل فى مجتمع ما من تقاليد وعادات ونظم معيشة ودين وفن وهلم جرأً ، ويقول فندريس : إنه فى أحضان المجتمع تكونت اللغة - وهى الحقيقة الاجتماعية بأوفى المعانى - تنتج من الاحتكاكات الاجتماعية ، وتنشأ جذورها فى أقصى أعماق الشعور الفردى ، ومن هنا تستمد قوتها لتتفتح على شفاء بنى الإنسان ، فاللغة إذن عامل من عوامل المجتمع وليست من منتجاته»^(٣) .

واللغة فى الغالب مفتاح لسلوك الجماعة ، تسمح بالتنبؤ بمشكلة رد فعل الجماعة تجاه المواقف المتنوعة «وحيثما تنتقل من الحضارات المتخلفة إلى الحضارات المتقدمة يصبح العامل اللغوى فى الحضارة أكثر أهمية مادامت اللغة تقوم بدور الأداة أو - الوساطة الثقافية»^(٤) ، ومن أجل ذلك يرى اللغويون أن اللغة من أعجب المبتكرات التى أظهرها التطور البشرى ، ولذا أوجبوا الوقوف عندها ، بل وإطالة الوقوف لكى نرى الدور الذى تؤديه على وجه الدقة ، والنصيب الذى تقوم به فى التطور العقلى ، ثم أوجبوا معرفة ماهى الصلات بين الفرد والجماعة فيما يختص بإنتاج هذه الأداة القيمة وذلك لإكمال ما فيها من نقص على مر الأزمنة ، «فاليد واللغة فيهما تنحصر البشرية»^(٥) .

ولا يمكننا أن نفهم وظيفة اللغة إلا إذا نظرنا إليها باعتبارها حقيقة ماثلة فى المجتمع ، ولن تقوم له قائمة إلا بها ، فاختفاء اللغة فى المجتمع يعنى اختفاء سبل التعبير عن الأفكار والخواطر بل لن نستبعد فقدان القدرة على التفكير نهائياً فى ظل غياب اللغة ، فبغير اللغة لن ينمو السلوك والعادات

(١) اللغة والمجتمع ، رأى ومنهج ، د. محمود السمران ، المطبعة الأهلية ، ١٩٥٨ م ، ص ٧ .

(٢) اللغة العربية عبر القرون ، د. محمود حجازى ، دار الثقافة ، ص ١٣ .

(٣) اللغة ، فندريس ، ت عبد الحميد الدواخلى ود محمد القصاص ، ط الأنجلو المصرية ١٩٥٠ م ، ص ١ .

(٤) أسس علم اللغة ، ماريوبى ، ت أحمد مختار عمر ، منشورات جامعة طرابلس ، ط ١٩٧٣ م ، ص ٢٠٦ .

(٥) اللغة ، فندريس ، ص ١ .

التي من شأنها حلوا حضاره وبفضل اللغة اشترك الإنسان مع أقرانه في التجارب والأفكار ، واستطاع أن يجسم تجاربه الشخصية لنفعهم .

ولو أردنا أن نبين مدى العلاقة بين اللغة والمجتمع - الذي هو كيان الحضارة - فإننا سوف نجد أن للمجتمع دوراً كبيراً في خلق اللغة من أصوات ونراكيب متفق عليها ، فاللغات تصدر دائماً عن الجماعات ، والعرد يكتسب لغته من الجماعة التي ينحبا وسطها^(١)

والوظيفة الأساسية للغات في مجتمعات البشر هي تحقيق الاتصال بين الأفراد والتعاون بينهم والتنسيق بين جهودهم ، وعلى هذا النحو تتعاون جماعات الأفراد معاً لتكون سلمها الحضارى .

ولقد عبر المفكر الفرنسى البيرسويل عن أهمية اللغة في المجتمع بعبارة بليغة على غرار قول ديكرات الشهير . فقال : أنا أتكلم إذن أنا موجود^(٢)

وفي عهد من عهود الحضارة التي اجتزناها منذ أجيال كان عمل اللغة في الحياة العامة محدوداً نسبياً لأن أداة الحكم في ذلك العهد تتمثل في السوط ، ولغة السوط بما يفهمه الناس دون حاجة إلى وساطة ، ولكن الأمور تغيرت الآن فصار كل شيء يرتبط باللغة ، وأصبح حرمان شعب من حق استعمال لغته أسوأ ما تتعرض له الشعوب من عسف وظلم وذلة ومهانة ، إن لم يكن في هذا القضاء المبرم على هذا الشعب^(٣) .

وحين نتحدث عن اللغة وصياغاتها الحضارية فلا بد أن يكون واضحاً أن الألفاظ في ذاتها ليست هي التي تُحدث الأثر أو تحرك الموقف ولكن «ما تثيره هذه الألفاظ من التصورات الذهنية لدى الأفراد»^(٤) .

واللغة هي أقوى الأدلة عند استقصاء الملامح الخاصة لمجتمع ما من المجتمعات ، ويكفي أن نقرأ قوله تعالى . ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ [المائدة ١٠٣] حتى نبدأ في فهم العادات العربية المتعلقة بهذه الكلمات ، فاللغة إذن من العوامل التي تتميز بها المجتمعات ، بل من العوامل التي تهب كل مجتمع خصائصه المميزة ، ففي كل مجتمع مهما كانت طبيعته وحجمه تلعب اللغة دوراً ذا أهمية أساسية إذ هي أقوى الروابط بين أعضاء هذا المجتمع ، وهي - في الوقت نفسه - رمز إلى حياتهم المشتركة وضمان لها ، «على أن خطر اللغة في حياة المرد لا يقل عن خطرها في

(١) اللغة والمجتمع ، د ثريا عبد الله ، دار المعارف ١٩٧٧ ، ص ١١

(٢) اللغة والمجتمع ، د. ثريا عبد الله ، ص ٥١ .

(٣) اللغة بين القومية والعالمية ، د إبراهيم أنيس ، دار المعارف ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٧ .

(٤) اللغة والحضارة ، د. مصطفى مندور ، منشأة دار المعارف ، الإسكندرية ١٩٧٤ م ، ص ١٥١ .

حياة المجتمع إذ هي الأداة الوحيدة التي تمكن الفرد من الدخول في نطاق المجتمع الذي يعيش فيه ولولا اللغة لظل الفرد حبيس العزلة الاجتماعية ، غير عالم بكل ما يجري حوله من الأحداث الفردية والاجتماعية^(١) .

على أننا يجب أن نضع في الحسبان التطور اللغوي ، «فالتطور اللغوي الذي يعرض للغة يتناول مادتها أى مجاميعها الصوتية ، وأقصد بذلك الألفاظ وكيف يتهيأ لألفاظ أن تبقى وتتطور في الاستعمال، كما تقضى عوامل أخرى على أن تندثر ألفاظ كثيرة ، ثم إن هذا التطور يعرض لطبيعة الأصوات وصفاتها»^(٢) .

ومرد ذلك كله إلى العلاقة الوثيقة القائمة بين التطورين اللغوي والحضارى ، فالعلاقة بين اللغة والحضارة علاقة اطرادية ، فالحضارة لا تعدو أن تكون جماع ما تواضع عليه الناس من أمور وأحوال ومفاهيم ورثوها عن آبائهم وأسلافهم أو ولّدها استجابة لحاجة من حاجات العصر ، وجملة هذا الموروث أو المولّد يؤلف نظاماً حضارياً يبدو جلياً في سلوك الفرد أو الجماعات ، واللغة الحضارية هي تلك اللغة التي سلخت من عمرها أحقاباً طويلة فكانت مرآة لأدب قويم عالٍ وفكر ثاقب متفاعل ، وهذا يعنى في المنطق اللغوي أن تشتمل على ألفاظ كثيرة شاملة لدلولات كثيرة تعبّر عن حاجات مختلفة عرضت للناس في مختلف العصور»^(٣) .

فاللغة إذن عامل مهم للترابط بين جيل وجيل ، وانتقال الحضارة عبر العصور لا يمكن أن يتم إلا عن طريق اللغة ، بل إن تاريخ اللغة مرآة ينعكس عليها تاريخ الحضارات الإنسانية ، فهي -أى اللغة- توابك الحضارة في مسيرتها عبر القرون وتتلّام وحاجات المتكلمين ، فصفت أى لغة من اللغات «تظل مستمرة باستمرار أهلها بنفس نمط حياتهم وعاداتهم ، وتظل مفردات اللغة التي خلّفتها احتياجات الحياة خاضعة لتلك الحياة لتلبى رغباتها المتنوعة والتي لا تنتهى إلا بانتهاء الحياة نفسها .

وفي مجال حديثنا عن اللغة العربية نرى أنها عاشت وتطورت بنيتها في تفاعل دائم مع طبيعة العلاقات الاجتماعية والحضارية والدينية ، التي سادت في المجتمع عبر التاريخ»^(٤) . فاللغة ظاهرة اجتماعية حضارية ، ودراسة الألفاظ ودلالاتها على نحو دقيق لا تتم إلا في إطارها الاجتماعي والحضارى والتغير اللغوي لا يفسر تفسيراً كاملاً إلا في ضوء الظروف الحضارية والاجتماعية وإلى جانب هذا تؤثر المواقف الاجتماعية من مستويات اللغة في مكانة هذه المستويات وتحدد مسار التغير

(١) اللغة بين المعايير والوصفية ، د. تمام حسان ، الأنجلو المصرية ١٩٥٨ ، ص ٧ .

(٢) اللغة والحضارة ، د. إبراهيم السامرائي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ١٩٧٧ م ، ص ٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٨ .

(٤) علم اللغة العربية ، د. محمود حجازي ، دار الثقافة ، ص ٣١٦ .

فيها، وهناك قضايا لغوية كثيرة لا يمكن اتضاح معالمها الكاملة إلا بالتعاون بين الدراسات اللغوية والاجتماعية والحضارية^(١).

وقد قالوا إن اللغة منظمة عرفية للرمز إلى نشاط المجتمع^(٢)، وهي أساس لكل أنواع النشاط الثقافي للاهتمام إلى معالم المجتمعات، وهي وثيقة الصلة بين الإنسان وبيئته وجزء من السلوك الإنساني^(٣)، وتتأثر بحضارة الأمة وعقائدها واتجاهاتها العقلية ودرجة ثقافتها، ونظرتها إلى الحياة وشؤونها الاجتماعية العامة، فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صدها في أداة التعبير ولذلك تعد اللغة أصدق سجل لتاريخ الشعوب.

وكلما اتسعت حضارة الأمة وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها، وارتقى تفكيرها وتهذبت اتجاهاتها النفسية نهضت لغتها وسمت أساليبها، وتعددت فيها فنون القول، وركت معاني مفرداتها القديمة، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة^(٤).

وخلاصة القول إن اللغة هي لسان الحضارة المعبّر عنها في شتى مناحي الحياة، ولا يُتصور قيام حضارة بغير اللغة.

(١) المرجع السابق، ص ٥١.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، الهيئة العامة للكتاب، ط ١٩٧٦، ص ٣٤.

(٣) اللغة والمجتمع، د. محمود السمران، المطبعة الأهلية، بنغازي، ١٩٥٨، ص ٣٩.

(٤) اللغة والمجتمع، د. على عبد الواحد وافي، ط نهضة مصر، ص ٩.